مدينة بسكرة بأقلام ألمانية –الرّحالة هاينريش فون مالتسان أنموذجا–

Biskra in the eyes of German travelers – Heinrich Von Maltezan in a model –

موس نجاة[1]، بن مالك سيدي مُحَمَّد[2]

[1] المركز الجامعي مغنية، مخبر الدراسات النّقدية الأدبية وأعلامها في المغرب العربي من التأسيس إلى نهاية القرن العشرين، د.مُحَمَّد مرتاض (الجزائر)، mousnadjat@gmail.com

[2] المركز الجامعي مغنية، مخبر الدراسات النّقدية الأدبية وأعلامها في المغرب العربي من التأسيس إلى نهاية القرن العشرين، د.مُحَمَّد مرتاض (الجزائر)، benma_1971@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/03/10 تاريخ القبول: 2023/04/13 تاريخ النشر: 2023/12/10

ملخص: إنّ أدب الرّحلة حقل واسع يسمح بتفتّح أمّة ما على الطّرف الآخر، ومن هذا الأدب نجد ما خلّفه عدّة رحّالة أوروبيّين في وصف الجزائر، ومن بينهم الرّحالة الألمان الّذين زاروا عدّة مدن جزائرية، وأفاضوا في تصويرها.. ومن أشهر الرّحالة المصوّرين للعديد من مناطق الجزائر نجد الأديب هاينريش فون مالتسان *Heinrich Von Maltezan (1826* م – 1874م)، الّذي تحدّث عن المدن الشّمالية كالجزائر العاصمة، وعنّابة، ومعسكر، إضافة إلى المدن الصّحراوية كالجلفة وبسكرة الّتي قام بوصف جمال الطّبيعة فيها، كما أنّه تحدّث عن طبيعة عمرانها ومظاهر الحياة الدّينية والإجتماعية فيها.

كلمات مفتاحية: الرّحالة الألمان؛ هاينريش فون مالتسان؛ بسكرة؛ صورة الجزائر؛ رحلات.

Abstract:

Travel literature is a vast field that allows a nation to open up on the other side – Form this literature we find what several European travelers left behind in describing Algerea.

Among them are German travelers who visited several Algerian cities and they have overdescribed it. Amoung the most famous travelers to many regions of Algeria, we find the writer Heinrich Von Maltzan who spoke about Algerian cities such as Algiers and Annaba. .., in addition to described the beaty of nature in it, mentioning its nature and the features of its architecture defining aspects of religious and social life in it.

Keywords: German nomads; Heinrich Von Maltzan; Biskra; Algeria picture; trips.

المؤلف المرسل: موس نجاة، **الإيميل:** mousnadjat@gmail.com

1. مقدمة:

لقد اِهتمّ الكثير من الرّحالة الأجانب وخاصّة الأوربيّين بزيارة العديد من البلدان العربيّة لِاكتشاف ما تحمله هذه البلدان من مشاهد طبيعية ومعالم جغرافية وتراكيب اجتماعية وقيّم دينية، إضافة إلى رصد القوى الاِقتصادية والتّجارية الّتي تزخر بها هذه البلدان. ومن الدّول المستقطبة والمثيرة لِاهتمامات هؤلاء الرّحالة الأوربيّين نجد الجزائر التي عرفت، وتحديدا في القرون الأخيرة –في نهاية العهد العثماني وإبّان الاِحتلال الفرنسي– تواجد العديد من الأسرى الأوربيّين بها، كما زارها بعض الرّحالين والكتّاب والعلماء والشّعراء الّذين سجّلوا ما أثار اِهتمامهم في كتب اِتّخذت أشكالا أدبيّة عديدة منها: الرّحلات والرّسائل والمذكّرات. يقول أبوالعيد دودو: "وبعد أن رجع هؤلاء وأولئك إلى بلدانهم أصدروا كتبا على شكل رحلات أوبصورة رسائل ومذكّرات، تحدّثوا فيها عن تجاربهم الشّخصية في الجزائر وعلاقاتهم بأهلها، وعبّروا عن مواقفهم من قضاياها الدّينية والاجتماعيّة والسّياسيّة والثّقافية والخلقيّة"(دودو، 1975، صفحة 6).

كما يشير أبوالعيد دودوإلى اِختلاف قيمة هذه الكتب بين بعضها بعض؛ إذ يؤكّد ذلك في قوله: "نجد العديد من هذه الكتب في مكتبات أروبا، تختلف قيمتها بين كتاب وآخر ."(دودو، 1975، صفحة 6)

ومن الرّحالة الأجانب الّذين تحدّثوا عن الجزائر نجد الرّحّالة الألمان؛ فكثير منهم زار بلاد الجزائر وخلّف لنا كتب متنوعة في وصفها، ومن هؤلاء نذكر الرّحّالة "فيلهلم شيمبر **Wilhelm Schimper** (1804م – 1878م)، وهوصاحب كتاب "رحلة فيلهلم شيمبر إلى الجزائر في سنتي 1830م – 1832م"(دودو، 1975، صفحة 11)، وكذلك الرّحّالة "فرديناند فينكلمان **Ferdinand Venkelman**، وله كتاب "تاريخ اِحتلال الجزائر من طرف الفرنسيّين سنة 1830م"(دودو، 1975، صفحة 23)، و"هرمان هاوث **Herman Hoth**"الّذي أصدر في سنة 1835م بمشاركة الرّحّالة "إدوارد فيدرمان **Edward Federmn** "كتابا صغير الحجم بعنوان "الجزائر كما هي"(دودو، 1975، صفحة 25).

ومن أشهر الرّحّالين الألمان "موريتس فاغنر" :**Moritz Wagner** الّذي وضع كتابا عن الجزائر بعنوان "رحلات في ولاية الجزائر في سنوات 1836، 1837 و1838". ونجد، أيضا، "فنرلين شلوصر" **Venrlin Chlusr** وله كتاب عنونه بـ "قسنطينة أيّام أحمد باي 1932م – 1837م"، والرّحّالة الكبير "هابنسترايت" بكتابه "رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت **J.E.Hebenstreit** إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732م"، إضافة إلى الرّحّالة الّذي هوموضوع دراستنا "هاينريش فون مالتسان" **H.V.Maltezan** وهوصاحب كتاب "ثلاث سنوات في شمال إفريقيا". كان هؤلاء بعض الرّحّالة الألمان الّذين قاموا بزيارة الجزائر ووثّقوا رحلاتهم، ثمّ أصدروها في كتب جمعت مذكّرات ويوميّات تسرد تجاربهم.

2.إهتمام الرّحّالة الألمان بالجزائر

في بداية الأمر، إهتمّ الألمان بما كتبه المؤلّفون الأجانب عن الجزائر؛ فترجموا إلى لغتهم بعض الكتب لرّحّالين أوربيّين أمثال الرّحّالة الإنجليزي "توماس شو" Thomas Shaw صاحب كتاب "رحلة في ولاية الجزائر" سنة 1765م. (دودو، 1975، صفحة 8)وكان هذا الرّحّالة كاهنا بالوكالة الإنجليزية من 1720م إلى 1732م، كما قدّم عملا آخر يعدّ نادرا بعنوان "جولات في ولايات متعدّدة ببلد البربر والشرق"، قدّم فيه وصفا دقيقا عن بلد الجزائر "خاصّة عن ريفها ومنتجاتها وآدابها العربية، مثلما تضمّن قليلا من المعلومات عن الحياة السّياسيّة والإدارية"(عميراوي، 2009، صفحة 9).

وقد زاد إهتمام الألمان بالجزائر منذ إحتلالها من قِبَلِ الفرنسيّين سنة 1830م، لتشجيع الهجرة إليها قصد الإستيطان الّذي كان من مختلف الدّول الأوربيّة لمنافسة فرنسا في المستوطنات الإفريقية تحت شعار "ليكن الاحتلال فرنسيا ولكنّ الاستيطان يجب أن يكون أوروبيّا"(عميراوي، 2009، صفحة 16).

وهكذا توالت رحلات الهجرة من طرف الألمان وغيرهم من الأروبيّين إلى الجزائر، "فالرّحّالة الألمان لم يضعوا كتبهم عن الجزائر حبّا بها، ودفاعا عن حقوقها، وإنما وضعوا أكثرها، ولا سيما في الفترة الأولى، لتكون دليلا لمن أراد من مواطنيهم الهجرة إلى الجزائر لإنشاء المستعمرات والإقامة بها إقامة دائمة تحت ظل

الإِحتلال الأجنبي وحماية حكومته، فقد كانت مصالح مواطنيهم مرتبطة بمصالح الغزاة"(عميراوي، 2009، صفحة 78).

3.نبذة عن حياة هاينريش فون مالتسان:

هاينريش فون مالتسان **Heinrich Von Maltzan** (1826م – 1874م) عالم آثار ورحّالة ألماني، اِهتمّ بحياة الشّعوب الشّرقية وخاصّة العربية، زار المغرب والجزائر وتونس، كما زار مكّة متنكّرا في زيّ حاج وكتب عن ذلك مذكّرة من 750 صفحة عن رحلته تلك.(بومعزة، 2016، صفحة 77)أمّا عن تحصيله العلمي، فقد درس القانون في هايدلبرك"، ولكن لِاعتلال صحّته، أمضى بقيّة حياته في أسفار إلى البلدان الدّافئة؛ فسافر إلى المغرب، والسّاحل البربري (الجزائر).

بدأ رحلاته إلى أروبا عام 1852م، وبعدها إلى دول عربية عديدة منها: فلسطين وسوريا والمغرب والجزائر، وعاد إلى بلاده عام 1854م. وفي سنة 1856م - 1857م، رجع لزيارة الجزائر، وفي 1858م وصل إلى مرّاكش، أمّا في سنة 1860م ،فقد شرع في الذّهاب للحجّ إلى البقاع المقدّسة. وقد وصف رحلة حجّه في كتاب "**Meine Wallfahrt nach Mecca**" الصّادر في لاينريك عام 1865م، ثمّ زار بعد ذلك عدن وممباي، ثمّ عاد ليدرس عامين في أروبا، ورجع ليتجوّل مرّة أخرى في جزر البحر الأبيض المتوسّط، ثمّ ذهب للجزائر تارة أخرى، ونشر كتابا بعنوان "رحلة في جنوب بلاد العرب".(بومعزة، 2016، صفحة 78)

ومن مؤلّفاته أيضا: "ثلاث سنوات في شمال إفريقيا" "**Drei Jahre in Nordafrika**"، ويتكوّن هذا الكتاب من أربعة أجزاء ثلاثة خاصّة بوصف الجزائر وضواحيها، والرّابع خاصّ بالغرب، نشر كتابه هذا سنة 1863م(حمّودي، ب.ت، صفحة 6)،كما وضع كتابا بعنوان "مدخّنوا الحشيش في الجزائر" "**Haschisch Daucher in Algerien**" الصّادر عام 1869م، وتناول فيه الجوانب النّفسية والإِجتماعية الّتي أدّت إلى بعض السّلوكات المنحرفة عند الشّباب زمن الإِحتلال الفرنسي(بوداود، 2016، صفحة 26)، كما أنّه كتب عدّة روايات عن الجزائر مستمدّة من الموروث الشّعبي الحكائي والرّوائي للشّعب الجزائري، ومن بين هذه الكتب نجد: رواية "قبر الرّومية" المنشورة سنة 1865م، وكتاب

"صور من التّقاليد التّونسية والجزائرية" المنشور سنة 1869م(دودو، 1975، صفحة 85)، وكذلك كتاب صور من التّقاليد" الّذي نشر عام 1869م.

وقد تعلّم هذا الرّحّالة اللّهجة الجزائرية على يد معلّمين جزائريّين، وهوما ساعده على زيادة المعرفة بأهلها وتاريخها وأوضاعها المختلفة، ممّا جعله يجسدّ مناظرها في عدّة قصائد جمعها في ديوانه الشّعري، فلمالتسان ديوان شعري يحمل عنوان "أصداف الحج"، كان قد نشره عام 1893م، يحتوي الدّيوان على أربع قصائد مطوّلة، وضع لها العناوين التّالية: (حفناوي، ب.ت، صفحة 228)"الجزائر، البليدة، مازونة، رحلة في الصّحراء".

وقد تغنّى في هذه القصائد بمختلف المناظر الطّبيعية الخلاّبة في هذه المدن.

4. صورة الجزائر في مؤلفات الرحالة مالتسان:

لقد قام هذا الرّحّالة بعدّة رحلات إلى أروبا والوطن العربي، وإستقرّ أخيرا بالجزائر، وتلقّى فيها دروسا باللّغة العربية واللّهجة الجزائرية، "فهوزار الجزائر في فترات مختلفة، وكتب عن مدنها وما فيها من آثار خالدة كتابات قيّمة"(حفناوي، ب.ت، صفحة 229)، وتميّزت كتاباته بنوع من الدّقّة والحياد أثناء حديثه عن مختلف الأوضاع الجزائرية إبّان الإِحتلال الفرنسي، يقول الدّكتور عبد القادر بومعزة في كتابه "بسكرة في عيون الرحالة الغربيين": "قام الرّحّالة الألماني مالتسان برحلته إلى الجزائر في أواسط القرن التّاسع عشر، وقضى هناك ثلاث سنوات، ليقدّم في يومياته الّتي وضعها خلال إقامته الجزائرية نظرة شاملة عن الجزائر، ولعلّ هذا بالذّات ما يميّز كتاباته عن الكتابات الأخرى الّتي وضعها بعض مواطنيه من الرّحّالين الألمان"(بومعزة، 2016، صفحة 78).

وكان لهذه الرّحّالة علاقات كثيرة مع عدّة أساتذة ومثقّفين جزائريين، مكّنته من الإِطّلاع على نظم الحياة فيها، ودراسة ملامح الشّخصيّة الجزائرية في مختلف أوضاعها الإِجتماعية، "وقد كتب مالتسان ثلاث قصص صوّر فيها بعض التّقاليد الجزائرية تصويرا دقيقا، وتحدّث عنها بأسلوب رائق ممتع وهي: جواهر الباشا، والصفّ القبائلي، وتوجد هذه القصص في كتاب له يحمل عنوان: "صور من التّقاليد الجزائرية والتّونسية"(حفناوي، ب.ت، صفحة 227).

كما يقدّم هاينريش فون مالتسان صورا متنوّعة عن جزائر القرن التّاسع عشر وجزائر الإستعمار الّتي إنتقلت إليها الأمراض والأوبئة ومختلف الآفات الاجتماعية، يقول الدّكتور حفناوي بعلي في كتابه "صورة الجزائر في عيون الرّحّالة وكتابات الغربيين": "وهكذا أصبح في الإمكان، أن يشاهد الرّحّالة أوالزّائر إلى جزائر العرب في شوارع مدينة الجزائر الإسلامية الّتي عرفت قديما بشدّة التّمسّك بتعاليمها الدّينية، وهم يتعاطون يوميا نوعا من المشروبات المسكرة"(حفناوي، ب.ت، صفحة 228)، كما أنّه وصف العديد من المشاهد الّتي شاهدها ومزجها بنوع من السّخرية، يقول:" أمّا رحّالتنا هاينريش فون مالتسان فقد أمكنه أن يتجوّل في الجزائر طولا وعرضا لنفوز به بيوميات دقيقة، وبرحلة ساخرة لما إلتقطه من مشاهد ومفارقات تتعلّق ببلد تحوّل إلى معسكر لا مكان فيه للمدنيّين إلاّ بإحتقار تامّ، حسب وصفه، ويتّضح من خلال هذا القول أنّ وصف مالتسان كان دقيقا يتخلّله نوع من الدّقّة والحياد"(بومعزة، 2016، صفحة 79).

ويصف هذا الرّحّالة في كتابه "ثلاث سنوات في شمال إفريقيا" العديد من المدن الجزائرية الّتي أعجب بها، ومن بينها مدينة "مليانة"، كما أنّه يتحدّث عن الطّريق الّذي سلكه من "البليدة" إلى "المدية"، وكذا إستطلاعه لمهاوي "الشفّة" عبر جبل "موزاية"، فهذه المسالك والمنحدرات شكّلت لديه منظرا خلاّبا منقطع النّظير، يطلّ من خلاله على مدينة "المدية" ثمّ يعبّر "الجسر الروماني". متحدّثا عن الطّريق المؤدّي إليها من "البليدة"، واصفا إيّاه بأنّه من المناظر الخلاّبة الّتي يقدّمها الرّيف الجزائري لعشّاق المناطق الطّبيعية السّاحرة(حفناوي، ب.ت، صفحة 224).

ومن بين المدن الجزائرية الّتي تطرّق هذا الرّحّالة إلى وصفها والتّغنّي بجمالها نذكر مدينة "قسنطينة" الّتي حطّ بها الرّحّالة سنة 1862م، وقد خصّها بحيّز كبير في كتابه "ثلاث سنوات في شمال إفريقيا"، وقد رسم صورة جميلة وواضحة عن هذه المدينة بذكر الكثير من عادات سكّانها وتقاليدهم وموروثهم الشّعبي من قصص وحكايات وروايات، ونجده أثناء وصفه هذه المدينة وحديثه عن أوضاعها يسخر من الحكّام الفرنسيّين بالجزائر وينتقد سيّاستهم الّتي عملت على إنتهاك حرمة الشّعب الجزائري بكلّ ما يحمل من هوية وقيم وعادات وآثار تاريخية(حمّادي، 2008، صفحة 143).

ويقدّم هذا الرّحّالة صورا متنوّعة عن الجزائر من شمالها إلى جنوبها، إذ نجده يصف بعض المدن الصّحراوية بأسلوب راق وجميل، إذ وصف مدينة "الجلفة"، فصوّر تضاريسها وجبالها وسهولها. ومن المدن الّتي جلبت اِهتمامه أيضا مدينة "بسكرة" حيث وصف غابات النّخيل – حسب قوله – ومنازلها ومساجدها المصنوعة من الطّين(هاينريش، 1979، صفحة 102).

لقد قدّم مالتسان وصفا شاملا عن مختلف الأوضاع الّتي شاهدها في الجزائر، وهذا ما ميّز كتاباته عن سائر الرّحّالة الألمان الّذين زاروا الجزائر وكانت لهم عدّة آثار في وصفها. فنجد الألماني "فيلهلم شيمبر" في: "رحلته الّتي قام بها إلى الجزائر سنة 1830م ومكث فيها سنة 1832م بوصف مدينة الجزائر ونواحيها، والتّعريف بسكّانها وأوضاعهم الاِجتماعية، والحديث عن الحركة الصّناعية والتّجارية والثّقافية"(بومعزة، 2016، صفحة 78)، فهذه الأوصاف اِقتصرت على مدينة الجزائر دون مدن أخرى.

أما الرّحّالة "الأمير موسكاو- **Puckler Musmau** "، "فقد اِكتفى بوصف بعض مناطق السّاحل الجزائري والتّعليق على بعض الأحداث الّتي وقعت خلال زيارته إلى الجزائر"(بومعزة، 2016، صفحة 79).

ومن الرّحّالة المشهورينّ الّذين شدّوا الرّحال إلى الجزائر "موريس فاغنر"، فهوزار مناطق معيّنة وتحدّث عن الأمير عبد القادر خاصّة بعد وصوله إلى مدينة "معسكر"، يقول الباحث عبد القادر بومعزة "وكان موريس فاغنر قد اِقتصر بدوره على مناطق معيّنة، فزار عددا من المدن، وقد أتيح له ما لم يتح لغيره وهوزيارة مدينة معسكر وما يليها من المناطق الّتي كانت تابعة لدولة الأمير عبد القادر"(بومعزة، 2016، صفحة 79).

أما الرّحّالة هاينريش فون مالتسان، فقد خصّ العديد من المدن الجزائرية بالزيارة والوصف مخلّفا عدّة كتب في ذلك إضافة إلى موروثه الأدبي المتنوّع من قصص وروايات وأشعار عن بوّابة إفريقيا "الجزائر".

5. صورة بسكرة في مؤلّفات الرّحّالة مالتسان:

لقد تمكّن هذا الرّجل من التّجوّل في الجزائر طولا وعرضا مخلّفا لنا يوميات دقيقة،وبأسلوب ساخر عمّا اِلتقطه من مشاهد ومفارقات تتعلّق ببلد تحوّل إلى معسكر لا مكان فيه للمدنيّين إلاّ بِاحتقار تامّ، حسب وصفه(بومعزة، 2016، صفحة 79).

1.5. المناظر الطّبيعية:

يصف فون مالتسان مدينة بسكرة في كتابه "ثلاث سنوات في شمال إفريقيا" وصفا دقيقا بدءا من اِنطلاقه نحوها، كما أنّه أطال وفصّل في وصف الطّريق المؤدّي إليها، حيث اِنطلق من مدينة باتنة نحومدينة بسكرة مرورا بالجسر الّذي أطال في وصفه قائلا: "عبرنا ذلك الجسر الرّوماني القديم، الّذي يقع في أضيق منطقة بهذه الشّعاب، فقد ضاقت الشّعبة هنا إلى درجة أنّ الوادي كان يشقّ طريقه بقوّة، فتندفع مياهه المزبدة عبرها، ومن المؤكّد أنّ تيّاره كان سيجرف معه السّائح"(هاينريش، 1979، صفحة 102)، فهذا المقطع يوضّح ذلك الوصف الدّقيق الّذي يرسمه الرّحّالة الألماني فون مالتسان للمناظر الطّبيعية الّتي شاهدها أثناء رحلاته، فهنا صوّر الجسر في أبهى حلّة مع مشهد الوادي المندفعة مياهه، القويّ تيّاره مخلّدا لوحة فنيّة جميلة.

ومن المناظر الّتي اِسترسل الرّحّالة في وصفها نجد منظر الغابات الكثيفة الّذي يؤدّي تجاوزها إلى مشاهدة بعض القرى ذات المنازل الطّينية، وهذا ما قام بتصويره رحّالتنا، قائلا: "ثمّ دخلنا في غابة كثيفة من النّخيل تختفي وسطها قرية القنطرة المبنية من الأكواخ الطّينية، وكان المسجد نفسه مبنيا من الطّين، وكان له منارة مستديرة من نفس المادّة"(هاينريش، 1979، صفحة 103).

ونجده بعد وصف هذه القرية واِستغرابه من بناء المسجد بالطّين، يورد مقارنة بينها وبين الأماكن الأخرى الّتي زارها من قبل، حيث يقول: "إنّ هذه المدينة المبنية من الطّوب لتذكّرني بقوّة قرى الفلاّحين الّتي تحيط بضفاف النّيل، حتّى النّباتات الموجودة هنا تشبه نباتات مصر، إلاّ أنّ هذه المنطقة ينقصها النّيل طبعا، وعوضا عن ذلك كان لدينا البحر –بحر الرّمل الكبير– الصّحراء التي لا حدّ لها"(هاينريش، 1979، صفحة 104).

هذا المقطع يبيّن الشّبه الموجود بين مناظر مدينة بسكرة والمناظر الموجودة على ضفاف النّيل حسب رأي مالتسان.

وأثناء طريقه إلى مدينة بسكرة وبعد مروره بعدّة قرى، "وصف مالتسان النّاس وجلوسهم في المقاهي وعاداتهم وتقاليدهم، ثمّ شدّ الرحال نحوبسكرة، مارّا بواحة "لوطاية" ولكنّه لم يطل في وصفه لهذه الأخيرة"(بومعزة، 2016، صفحة 82).

وبعد أن وصل إلى بسكرة أورد عدّة أقوال فيها وأوصاف عنها تتمثّل في شساعة المساحة، وغطائها المغطّى بالأزهار البريّة، يقول مالتسان: "هي أكبر واحة في الصّحراء الجزائرية وكان الطّريق إليها ذا طابع واحد، فالمنطقة خرساء، والمساحات الرّملية رائعة، يتولّد عنها كثيب رملي في بعض الأحيان. ومع ذلك لا ينبغي أن يتصوّر المرء أنّ هذه الصّحراء جرداء، فقد كانت على العكس من ذلك في هذا الفصل الشّتوي الممطر مغطّاة بالأزهار البرية المختلفة والأعشاب الرّائعة. أمّا المساحة الرّملية الجرداء، تمتدّ على وتيرة واحدة ولا تعرف الأمطار أبدا، فيجب البحث عنها في الجانب الآخر من الصّحراء، فهناك تبدأ الصّحراء الحقيقية الّتي لا تكاد تعرف الماء"(هاينريش، 1979، صفحة 102).

2.5. المظاهر الإجتماعية:

بعد دخوله المدينة وتجوّله فيها، إتّخذ محلاّ عند عطّار محلّي يقيم فيه، يقول الدّكتور عبد القادر بومعزة في كتابه "بسكرة في عيون الرّحّالة الغربيّين": "لم يكن في وسعه أن ينام في غرفته ولا أن يقرأ ولا أن يكتب بسبب الضّجّة المتواصلة الّتي كانت تصله من المقاهي العربية المجاورة، لهذا قرّر دراسة الحياة الشّعبية لسكّان المدينة"(بومعزة، 2016، صفحة 84).

إنّ هذا الوصف لحالة الرّحّالة من عدم إستطاعته النّوم والقراءة والكتابة بسبب ضجّة المدينة، يظهر حركة المدينة ونشاطها في ذاك الوقت، وهذه الحركة هي الّتي أدّت به إلىدراسة الحياة الشّعبية لسكّان المدينة، يقول الباحث عبد القادر بومعزة: "ومن ثمّ يستفيد من هذا الوضع المزعج، وكان لا بدّ أن يتمّ ذلك في المكان الّذي تنطلق فيه تلك الضجّة"(بومعزة، 2016، صفحة 85).

والمكان الذي تنطلق منه الضجّة هنا هوالمقاهي العربية الّتي تتواجد بكثرة في المدينة، وتحمل جزءا كبيرا من الثّقافة الشّعبية لسكّان المدينة، حسب رأي الرّحّالة فون مالتسان، وبعد تجوّله داخل المدينة يقول ساردا: "وهكذا أمضينا إلى الشّارع الرّئيسي، وفي نيّتنا أن نجلس في أحد المقاهي العربية الكثيرة، الّتي كانت تبدووكأنّها تحاصر المدينة، كنا طبعا نريد أن نبحث عن مقهى، تتجلّى فيه حياة المدينة على الوجه الأكثر حركة وأصالة، وتحتوي على نفس العدد المتنوّع من شاربي القهوة ومن الرّاقصين، ولم نستطع اِتّخاذ قرار حيال الغزارة المربكة، فأخذنا نذرع الشّوارع ذهابا وإيابا، واكتفينا بمشاهدة المظاهر الخارجية"(هاينريش، 1979، صفحة 110).

كما قام مالتسان بوصف شوارع ومنازل المدينة، مشبّها إيّاها بمدينة باريس ولكن بصورة مصغّرة عنها، حيث يقول: "كانت الشّوارع عريضة، ولكنّها لم تكن طويلة"، فبسكرة ليست سوى باريس صغيرة، وصغيرة جدا، رغم أنّها سمّيت باريس، ولذلك لا أكاد أجرؤ على القول بأنّ عدد سكّانها يناهز الثّلاثة آلاف"(هاينريش، 1979، صفحة 111)، ونجده يتحدّث عن البيوت الموجودة بالمدينة، فيذكر طوابقها الأرضية ومواد بنائها، يقول: "بيوتها كلّها ذات طابق أرضي، وكانت دار القائد العسكري الوحيدة، وكذلك الثّكنة ثمّ القلعة، ترتفع فوق العلوالعادي لهذه البيوت الّتي تشبه جحر الحيوان الخُلد. وكانت البنايات كلّها تقريبا جديدة، اِستعملت فيها مواد البناء الفرنسية، وكان الشّارع الرّئيس يحتوي على عدد كبير من الدّكاكين العربية الصّغيرة، وكان هناك عدد من المحلاّت الأوروبيّة ومخازن يهودية قليلة"(هاينريش، 1979، صفحة 111).

وقد أعجب الرّحّالة بالعادات والأخلاق الحميدة للمجتمع البسكري، ومن ذلك عدم الاِختلاط بين الرّجال والنّساء، فنجده يقول: فلا نصادف في الشّوارع رجلا يتحدّث مع اِمرأة، والفتيات اللاّئي بلغن سنّ الزّواج، وتلك المتزوّجات لا يخرجن إلّا نادرا"(هاينريش، 1979، صفحة 111)، فكلّ هذه المظاهر شدّته وأثارت إعجابه، ولكن أكثر شيء طغى على مخيّلته هوذلك الهدوء والمناظر السّاحرة، وقد واصل مسيره الرّحلي لزيارة بعض المدن الصّحراوية الأخرى، ومن بينها "توقرت"، فحطّ رحاله في واحة سيدي عقبة الّتي يقول في وصفها: "ووصلنا عند الظّهيرة إلى الواحة الصّغيرة سيدي عقبة، فأحاطت بنا غابة نخيل

جديدة لكنّها –للأسف– كانت أيضا معدودة ومسجّلة بعناية، وهذه الواحة تشتهر بقبر البطل والفاتح العربي سيدي يعقبة، الّذي اِستعارت منه اِسمها"(هاينريش، 1979، صفحة 132)، ثمّ تابع "هاينريش فون مالتسان سيره بعد ذلك نحوالسّعدة –بنطيوس– شطّ الملغيغ"(بومعزة، 2016، صفحة 86)، متجوّلا في صحراء الجزائر واصفا جمالها ومناظرها السّاحرة.

خاتمـــة:

حظيت بسكرة وما جاورها لدى الرّحّالة الغربيّين بنصيب وافر من الوصف والدّراسة والتّحليل نظرا لما لها من أهمّية تاريخية ودينية عند المسلمين والمسيحيّين. وما جذب اِهتمام الرّحّالة لزيارة هذه المدينة هو جمال مناظرها الطّبيعية، وكثرة رموزها الدّينية من مساجد وزوايا وأضرحة.وقد قام هؤلاء الرّحّالة بتسجيل مشاهداتهم عن مختلف مظاهر الحياة.

وخلصنا في بحثنا هذا إلى مجموعة من النّتائج، تمثّلت في:

– اهتمام الأوربيّين بزيارة الجزائر، بمن فيهم الرّحّالة الألمان قبل الاحتلال الفرنسي وأثناءه.

– توثيق ما كتبه الرّحّالة الألمان عن الجزائر في كتب متنوّعة أثرت أدب الرحلة.

– تجلّي صورة الجزائر في أدب أمّة أخرى – الطّرف الألماني — على اختلاف ميادينها الاجتماعية والدّينية والطّبيعية.

– مساهمة الكتابات الأوربيّة – وبالتّحديد مؤلّفات الرّحّالة الألمان – في الاطّلاع على جزء كبير من تاريخ الجزائر إبّان الاحتلال الفرنسي.

– بروز عدّة أسماء لرحّالة ألمان صوّروا مختلف مجالات الحياة بالجزائر، وتحدّثوا عن أبطالها (الأمير عبد القادر) من أمثال موريس فاغنر، وشيمبر، وشلوصر، وهاينريش فون مالتسان.

– زيارة الرّحّالة الألماني هاينريش فون مالتسان للجزائر عدّة مرات، متجوّلا في مختلف مناطقها شمالا وجنوبا.

– تقديم الرّحّالة مالتسان صورة شاملة عن الجزائر خلال إقامته بها.

– تميّز كتابات الرّحّالة مالتسان بنوع من الواقعية والدّقّة في الوصف، خاصّة من حيث التّوسّع وانتقاد السّياسة الفرنسية في الجزائر.

– استعانة هذا الرّحّالة بالمرويات الشّعبية في كتابته لعدّة روايات عن الجزائر.

– اعتبار رحلة مالتسان إلى بسكرة والعديد من المدن الصّحراوية مصدرا مهمّا في معرفة تاريخ المنطقة، وكذلك الإحاطة بالعادات والتّقاليد .

6. قائمة المراجع

أبوالعيد دودو. (1975). *الجزائر في مؤلّفات الرّحّالة الألمان (1830 – 1855)*. الجزائر: الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع.

أحميدة عميراوي. (2009). *الجزائر في أدبيات الرّحلة والأسرى خلال العهد العثماني–مذكّرات تيدنا أنموذجا–*. الجزائر: دار الهدى.

إلهام بوداود. (2016). الجزائر في مؤلّفات الرّحّالة الألمان من خلال ترجمات أبي العيد دودو"أنموذجا" 1830 – 1855، (مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماستر في التّاريخ الحديث والمعاصر). المدية، كليّة العلوم الإنسانية والإجتماعية: جامعة الدّكتور يحي فارس.

بعلي حفناوي. (ب.ت). *صورة الجزائر في عيون الرّحّالة وكتابات الغربيّين*. دروب للنّشر والتوّزيع.

عبد القادر بومعزة. (2016). *بسكرة في عيون الرّحّالة الغربيّين* (المجلد 1). بسكرة: دار علي بن زيد للطّباعة.

عبد الله حمّادي. (2008). قسنطينة في أدب الرّحلات، مذكّرة (مقدّمة لنيل درجة الماجستير في الآداب). قسنطينة، كليّة الآداب واللّغات: جامعة منتوري.

فون مالتسان هاينريش. (1979). *ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا* (المجلد 3). (أبوالعيد دودو، المترجمون) الجزائر: الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع.

محمّد حمّودي. (ب.ت). إستراتيجية التّرجمة عند أبي العيد دودو. *حوليات التّراث* (5).